الصـراخ

أجمل لحظات الكتابة عندي هي عندما يتأخر الليل، ويخيم الصمت والسكون على كوخنا الصغير الهادئ.

غير أنه في الليالي الماضية جرى ما لم يكن في الحسبان.

عندما أطلت علينا المولودة البكر التي سررنا بها كثيرًا أنا وأمها حتى أننا أطلقنا عليها اسم «فرح».

لا أكاد أخلو إلى غرفتي في هذا الكوخ، وأمسك القلم بين أناملي في محاولة للكتابة، حتى تطلق الصغيرة صراخًا حادًا، يكاد أن يمزق طبلتي أذني، تهرول إليها أمها، وهي تحتضنها في لهفة، لكنها لا تتوقف عن الصراخ، أتوقف عن الكتابة وأسرع إليها في قلق وحيرة، قائلًا:

ـ ماذا بها الصغيرة؟

تجيبني أمها في ارتباك:

ـ لا أدري .. إنها ترفض الرضاعة ولا تتوقف عن الصراخ.

سهرنا بجوارها تلك الليلة، ونحن نقلبها يمنة ويسرة، ولكن دون جدوى، وما أن أطل الصباح حتى كنا نحملها إلى أقرب طبيب أطفال، في تلك العيادة أخذ الطبيب يتفحصها.. وضع سماعته الطبية على صدرها، تحسس بطنها، بعد لحظات بادرنا قائلًا:

ـ إنها ليس بها مرض.. ارتفعت الشمس في كبد السماء، وعدنا بها إلى الكوخ من جديد، وما أن أطل المساء حتى عزمت على الكتابة، وخطرت لي فكرة قصة جديدة، وما أن انساب القلم على الورق، حتى أخذ صراخ الطفلة في الارتفاع من جديد، وتوقفت عن الكتابة واقتربت من الطفلة التي كانت ترفض الرضاعة، ولا تتوقف عن الصراخ، هذه المرة.

أخذتها هي وأمها إلى العجوز الظريفة درافل التي استقبلتنا عند الباب، وأخذت منا الطفلة دخلنا خلفها تلك الحجرة، وضعت إصبعها بقسوة، داخل فمها الصغير، حتى تقيأت الطفلة ما في جوفها، نظرت إليها أمها وهي تصرخ مأخوذة:

ـ ماذا بها؟

بادرتها قائلة:

ـ هذه الطفلة «محلوقة» بها حلق .. وما أن وصلنا إلى الكوخ حتى كانت الطفلة قد رضعت من ثدي أمها، ثم استسلمت إلى سبات عميق، عندها انخرطت في كتابة تلك القصة وانساب القلم بين أناملي، وتزاحمت الأفكار على رأسي تتداعى على الأوراق البيضاء.